التحكيم

عبد الحميد جوده السحار

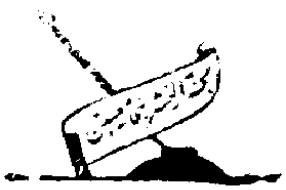

التحكيم

تأليف

عبد الحميد جودة السحار

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

« وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ، ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها ، وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ، إن الله يعلم ما تفعلون » . (قرآن كريم)

١

دار القتالُ رهيبا فى « صفّين » بين الإمامِ علىّ ومعاوية ، وأحسّ معاويةُ أنّ الغلبةَ لعلىّ ، فأمر أهلَ الشّامِ برفعِ المصاحفِ على الرِّماح ، فاستقبل أهلُ الشّامِ عليًّا بمائةِ مُصْحَف ، ووضعوا فى كلّ مُجَنِّبَةٍ مائتى مصحف ، ثم قام رجالٌ من أهلِ الشّامِ ونادوا :

— يا معشرَ العرب ، اللهَ اللهَ فى نسائكم وبناتِكم . فمن للرُّومِ والأتراكِ وأهلِ فارسَ غدًا إذا فنيتُم . هذا كتابُ الله بيننا وبينكم .

وخُدِعَ أهلُ العراق ، فقالوا لعلىّ :

— يا علىّ ، أجِبِ القومَ إلى كتابِ اللهِ ، إذ دُعيتَ إليه ، وإلاّ قتلناكَ .

وقبِلَ علىّ هذه الخديعةَ وهو كاره ، وجاءه أحدُ الذين يُحبِّذون التحكيمَ من رجالِه ، وقال له :

— يا أميرَ المؤمنين ، ما أرى النَّاسَ إلاّ وقد رضُوا ، وسرّهم أن يُجيبوا القومَ إلى ما دعَوْهم إليه من حُكم القرآن ، فإن شئتَ أتيتُ معاوية ، فسألتُه ما يريد ، ونظرتُ ما الذى يسأل .

— إيتِه إنْ شئت .

فأتاه فسأله ، فقال :

— يامعاوية ، لأىِّ شىءٍ رفعتُم هذه المصاحف ؟

— لنرجِعَ نحن وأنتم إلى ما أمَر اللهُ به فى كتابِه ، فابعثُوا منكم رجلًا ترضونَ به ، ونبعث منّا رجلا ، ثم

نأخذ عليهما أن يعملا بما فى كتابِ الله ، لا يَعدُوانه ، ثم نتّبعُ ما اتّفقنا عليه .

— هذا هو الحقّ .

وقال النّاس :

— قد رضينا بحكمِ القرآن .

وقال أهلُ الشّام :

— فإنّا قد رضينا واخترْنا عَمرو بنَ العاص .

وقال بعضُ أهلِ العراق :

— فإنّا قد رضينا واخترْنا أبا موسَى الأشعرىّ .

— إنّى لا أرضَى بأبى موسى ، ولا أرَى أن أُولّيه ، ولـكن هذا ابنُ عبّاسٍ أُولّيه ذلك .

كان ابنُ عبّاسٍ ابنَ عمّ علىّ ، لذلك قال بعضُ أهل العراق :

obeikandl.com

— لا نريد إلاّ رجلاً هو منك ومن معاوية سواء ، ليس إلى واحدٍ منكما بأدنى منه إلى الآخر .

فقال عليّ :

— إنَّ معاوية لم يكنْ ليضعَ لهذا الأمرِ حدّا هو أوثقُ برأيه ونظره من عمرو بن العاص ، وإنّه لا يصلُح للقرشيِّ إلا مثلُه ، فعليكم بعبدِ اللهِ بنِ عبّاس ، فارموه به ، فإنَّ عمْرا لا يعقدُ عقدةً إلاّ حَلَّها عبدُ الله ، ولا يحُلُّ عقدةً إلا عقدَها ، ولا يُبرِمُ أمرًا إلاّ نقضَه ، ولا ينقُض أمرًا إلا أبرمَه .

فرفضوا ذلك وأبوْه ، فقال عليٌّ في ضيق :

— قد أَبيتُم إلاّ أبا موسى ؟

— نعم .

— فاصنعوا ما أردتُم .

٢

ذهب رجالُ الإمامِ إلى معاوية ، لكتابة وثيقةِ الصُّلح ، فكتبوا :

« هذا ما تقاضَى عليه أميرُ المؤمنين . . »

فقال معاوية :

— بئسَ الرجلُ أنا إنْ أقررتُ أنَّه أَميرُ المؤمنينَ ثم قاتلتُه .

وقال عمرو :

— اكتُب اسمَه واسمَ أَبيه ، إنما هو أَميرُكم ، وأَما أَميرُنا فلا .

فخرج رجالُ الإمامِ إليه ، وأَطرق عليٌّ يفكر ، فقال له أَحدُ أَنصارِه :

— لا تمحُ اسمَ إمرةِ المؤمنينَ عنك ، فإِنّى أَخوَّفُ

إن محوتَها ألاّ ترجِعَ إليك أبدا ، لا تمحُها وإن قَتَل الناسُ بعضهُم بعضا .

فأبى عليٌّ أن يمحُوَها ، حتى جاءه بعضُ أهل العراق وقالوا له :

— امحُ هذا الاسم .

فقال الإمامُ فى حسرة :

— لا إلٰهَ إلاّ الله ، واللهُ أكبر ، سُنَّةٌ بسُنَّة ، أما واللهِ لعلىَ يدىَّ دار هذا الأمرُ يومَ الحُدَيْبِيَة ، حين كتبتُ الكتابَ عن رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : « هذا ما تصالح عليه محمدٌ رَسولُ اللهُ صلَّى الله عليه وسلَّم وسُهَيْلُ بنُ عمرو » . فقال سُهَيْل : لا أُجيبُك إلى كتابٍ تُسمِّى فيه رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، ولو أعلمُ أنَّكَ رسولُ اللهِ لم أقاتِلْك ، إنّى إذًا ظَلَمْتُك أن منعتُك

أن تطوفَ ببيتِ الله وأنت رسولُ الله ، ولكن اكتب : « محمدُ بنُ عبدِ الله » أجبْك . فقال محمدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم : « يا عليّ ! إنّى رسولُ الله ، وإنّى لمحمدُ ابنُ عبدِ الله ، ولن يمحوَ عنّى الرّسالة كتابى إليهم من محمّدِ بنِ عبدِ الله ، فاكتُب : من محمدِ بنِ عبدِ الله » . فاليوم أكتُبها إلى أبنائِهم كما كتبها رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم إلى آبائهم سُنَّةً ومَثلا .

وكُتِبتْ وثيقةُ الصُّلحِ على أنّ عليًّا ومن معه من أهلِ العراق ، ومعاويةَ ومن معه من أهلِ الشّام ، قد نزلا عند حُكمِ الله وكتابِه ، فإذا لم يجدْ أبو موسى الأشعرىُّ وعمرُو بنُ العاصِ فى القرآنِ حُكْما ، حَكَما بما يجدانِ فى السُّنَّة العادلةِ غير المفرّقة ، وعلى عليٍّ ومعاويةَ وتبيعتِهما وضعُ السّلاحِ إلى انقضاءِ هذه المدّة ،

وهي، من رمضانَ إلى رمضان ، على أنْ يرجعَ أهلُ العِراق إلى العراق ، وأهلُ الشّامِ إلى الشّام ، وعلى أن يكونَ الاجتماعُ إلى دُومةِ الجندل .

ووقّعَ عليٌّ الوثيقة ، وقام رجلٌ إلى الإمامِ عليٍّ أميرِ المؤمنين ، وقال له :

— يا أميرَ المؤمنين ، ما إلى الرُّجوعِ عن هذا الكتابِ سبيل ؟ فواللهِ إنّي لأخافُ أن يورِثَ ذُلاّ .

فقال عليّ :

— أبعدَ أن كتبناهُ ننقُضُه ، إنّ هذا لا يحِلّ .

وندِمَ أناسٌ من أصحابِ عليٍّ على قبولِ التحكيم، بعد فواتِ الأوان ، كما هي عادتُهم ، فنادَوا من كلّ جهة ، وفي كلّ ناحية :

— لا حُكمَ إلّا لله ، الحكمُ لله يا عليُّ لا لك ،

لا نرضى أن يحكمَ الرّجالُ فى دينِ الله ، إنَّ الله قد أمضى حكمه فى معاوية وأصحابه ، أن يُقتلوا أو يَدْخلوا فى حكمِنا عليهم . وقد كانت منا زلّةٌ حين رضِينا الحكمَيْن ، فرجَعْنا وتُبنا ، فارجِع أنت يا علىُّ كما رجَعْنا وتبْ إلى الله كما تُبْنا ، وإلا برِئنا منك .

ما كان علىٌّ ممن ينقُض عقدا ، فقال لهم :

— ويحكم ! أبعدَ الرّضا والميثاقِ نرجِع ، أوليسَ الله تعالى قال : « أوفُوا بالعُقود » . وقال : « وأوفوا بعهدِ الله إذا عاهدتُم ولا تنقُضُوا الأَيمان بعد توكيدِها ، وقد جعلتُم الله عليكم كفيلا ، إن اللهَ يعلم ما تفعلون » . وأبى علىٌّ أن ينقُضَ عهدَه ، وأبى هؤلاءِ الرِّجالُ إلاّ أن يخرجُوا عليه ، ولذلك سُمُّوا « الخوارج » وعاد الإمامُ إلى الكوفة ، وفارقه الخوارج .

٣

اجتمع عمرٌو وأبو موسى فى دُومةِ الجندل ، وحضر الناسُ ليستمِعوا قولَ الرَّجلين ، فقال عمرٌو لأبى موسى :

— يا أبا موسى ، إنْ قال قائلٌ إنَّ معاويةَ من الطُّلَقاء (الذين عفا النبىُّ عنهم بعد فتح مكة) وأبوه رأسُ الأحزاب ، لم يبايعْه المهاجرون والأنصار فقد صدق ، وإذا قال إنَّ عليًّا آوى قتلةَ عثمانَ ، وقتل أنصارَه يوم الجمل ، وبرز على أهلِ الشّام بصِفِّينَ فقد صدق ، وفينا وفيكم بقيَّة ، وإن عادتِ الحربُ ذهب ما بقِى ، فهل لك أن نخلعَهما جميعا ، ونجعلَ الأمرَ لعبدِ الله بنِ عُمر ، فقد صحِبَ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم ، ولم يبسُط فى هذه الحربِ يدًا ولا لسانا ، وقد علمتَ من هو ، مع فضلِه وزُهدِه وورَعِه وعلمِه .

كان أبو موسى لا يعدِلُ بعبدِ الله بنِ عمرَ أحدا ،

لمكانِه من رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ومكانِه من أبيه ، فقال مسرورا :

— جزاكَ الله بنصيحتِك خيرا .

واجتمع رأيُهما على ذلك ، فقاما أمام الشهود ، فقال عمرو :

— يا أبا موسى ، ناشدتُك الله تعالى ، من أحقُّ بهذا الأمر ، من أوفى أو من غَدَر ؟

— من أوفى .

— يا أبا موسى ، نشدتُك الله تعالى ، ما تقولُ في عثمان ؟

— قُتل مظلوما .

— فما الحكمُ فيمن قتل ؟

— يُقتل بكتابِ الله تعالى .

— فمن يقتُله ؟

— أولياء عثمان .

— فإنَّ الله يقول فى كتابِه العزيز : » ومن قُتِلَ مظلوما فقد جعلنا لوليِّه سلطانا » ، فهل تعلمُ أن معاويةَ من أولياءِ عثمان ؟

— نعم .

قال عمرٌو للقوم :

— اشهدوا .

فقال أبو موسى للقوم :

— اشهدوا على ما يقولُ عَمرو . قمْ يا عمرو ، فقل وصرِّح بما اجتمع عليه رأيى ورأْيُك ، وما اتفقنا عليه .

فقال عَمرٌو فى دهاء :

— سبحانَ الله ! أَقومُ قبلَك وقد قدَّمك الله قبلى فى الإيمانِ والهجرة ، وأَنت وافدُ أَهلِ اليمنِ إلى رسولِ الله ، ووافدُ رسولِ الله إليهم ، وبك هداهُم الله وعرَّفهم شرائعَ

دينهِ وسنّة نبيّه ، وصاحبُ مغانمِ أبى بكر وعمر ، ولـكن قمْ أنت فقلْ ، ثم أقومُ فأقول .

فقام أبو موسى فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

— إنّ خيرَ النّاسِ للنّاسِ خيرُهم لنفسه ، وإنّى لا أهلِكُ دينى لصلاحِ غيرى . إنّ هذه الفتنةَ قد أكلتِ العرب ، وإنّى رأيتُ وعمرًا أن نخلعَ عليًّا ومعاوية ، ونجعلَها لعبدِ اللهِ بنِ عُمر ، فإنّه لم يبسُط فى هذه الحربِ يدًا ولا لسانا .

ثم قام عمرو وقال :

— إنّ هذا قد قال ما سمِعتُم ، وخلعَ صاحبَه ، وأنا أخلعُ صاحبَه كما خلعَه ، وأثبتُ صاحبى معاوية ، فإنّه ولىّ عثمانَ بنِ عفّانَ رضى الله عنه ، والطالبُ بدمِه ، وأحقُّ الناسِ بمقامِه .

فقال أبو موسى فى غضب :

— مالك ، لا وفَّقك الله ، غدرتَ وفجرت ، إنما مثَلُك كمثلِ الكلب إن تَحْمِل عليه يلهثْ أو تتركْه يلهث .

فقال له عمرو :

— إنما مثلُك كمَثلِ الحمارِ يحمِل أسفارا .

٤

وبلغ الإمامَ خديعة عمرو لأبى موسى ، فقام فى الكوفة ، فخطب النّاس ، فقال :

— أَلاَ إنَّ هذين الرَّجلينِ اللَّذين اخترتُموهما حَكَمَينِ قد نبذا حكمَ القرآن وراء ظهورِهما ، وأَحيَيا ما أَماتَ القرآن ، واتَّبعَ كلُّ واحدٍ منهما هواه بغيرِ هُدًى من الله ، فحكَما بغيرِ حجَّةٍ بيِّنة ، ولا سُنَّةٍ ماضية ، واختلفا فى حكمِهما ، وكلاهما لم يرشُد ، فبرِىءَ اللهُ منهما ورسولُه وصالحُو المؤمنين . استعِدّوا وتأهّبوا للمسيرِ إلى الشّام .

وكتب إلى الخوارجِ أن يوافوهُ ليسيرُوا معه لقتالِ معاوية ، ولـكنّ الخوارجَ رفضوا ، وأرادَ الإمامُ أن يسيرَ بأهلِ العراقِ إلى أهلِ الشّام ، ولـكنَّ أهلَ العراقِ لم يُطيعوه ، بل طلبُوا منه أنْ يقاتلَ الخوارج ، فسار حتّى نزل المدائن ، والتَقى بالخوارج عند النَّهْروان ، ودارت بينه وبينهم معركةٌ رهيبة ، وانتصرَ الإمامُ عليهم ، ثم سار بالنّاسِ حتى نزل بالنُّخيلة ، فعسكر بها ، وأمر الناس أن يلزموا معه عسكرهم ، ويوطّنوا أنفسَهم على الجهادِ ، حتى يسيروا إلى عدوّهم من أهلِ الشّام ، فأقاموا معه أياما ، ثم رجعوا يتسلّلون ويدخلونَ الـكوفة ، وتركوا عليًّا وما معه إلاّ نفرٌ من وجوهِ النّاسِ يسير ، فأطرقَ الإمامُ حزينا ، فقد تيقّن أنّ أنصارَه قد انفضّوا من حولِه .